مسألة المعرفة

حيرة الفلاسفة فيها قديماً وحديثاً

للأستاذ الفيلسوف محمد فريد بك وجدى

أمة تمثلت فى مرد ، أوفرد تجمعت فيه أمة . ذلك هو الرجل الذى صنع نفسه بنفسه كما يقول الانكليز . والذي أجاد الصنعة كل الأجادة

تقرأ سيرته فتشعر أنك تقلب فى سفر جامع حافل بالتليد والطريف . وتحس نفسك أمام بنيان شامخ ، تخيرت أسسه من لبنات العلم الصحيح ، واتخذت قواعده من قوائم المعرفة الصحيحة

ذلك هو علامتنا الكبير الأستاذ فريد بك وجدى ، صاحب المؤلفات الشهيرة ، والمجلدات الضخمة ، والموسوعات الدائمة الصيت ، ويحسبك أن تعلم أنه صاحب دائرة معارف القرن العشرين لتعرف أي معجزة أتى بها العصر ، وتفهم أى فخر أكسبه الشرق

تفضل على (المعرفة) وقرائها ، بتعريف المعرفة من ناحيتي العلم والفلسفة فآثرنا وضعه فى هذا المكان على مقالنا الذى يراه القراء فى مكان آخر .

ويجد القارىء صورته على الصفحة التالية . أما مقاله فقد ابتدأه بقوله : —

المحرر

***

فكرت فى شيء أكتبه لهذه المجلة الناشئة فأثار اسمها فى نفسى مسئلة المعرفة فى الفلسفة ، وأذكرها تلك المنازعات العنيفة ، والبحوث المستفيضة التى حدثت حولها قديماً وحديثاً ، فرأيت أن أجمل القول فيها للقارئين . ولعله أول بحث فى هذه المسألة على صفحات مجلة عربية

كيف يعرف عقلنا الأشياء ؟

هذا سؤال يحسبه الرجل العادى لا يستحق البحث ولا المناقشة ولكنه لدى الفلاسفة شطر الفلسفة . بل شطرها الأهم الذى تمركزت فيه كل جهود الانسان منذ تنبه لتحديد علاقاته بالكون والكونيات

من الأمور البدهية أن الأشياء الخارجية والعقل الذى يدركها ، شيئان متميزان ، بل ومن بعض الوجوه شيئان متناقضان ، ولكن توجد بينهما علاقة ما ، فما هى تلك العلاقة ؟

كيف نفهم أن الأشياء ، وبخاصة الأشياء الخارجة عنا ، المخالفة لطبيعة العقل كل الخلاف ، يدركها هذا العقل و تتمثل فيه ؟

أول ما يتبادر إلى الذهن من حلول هذه المسألة . أن يقال إن العقل ترتسم عليه صور الأشياء كما ترتسم المرئيات على صفحة المرآة ، فيحدث فيه شعور بها وإدراك لها

(صورة العلامة فريد بك وجدى)

هذا حسن . ولكن كيف يمكننا أن نفهم أن تأثيرا يرد على العقل من الخارج ، أو حركة تنطبع منه فى المخ تكون نتيجتها أن يحدث فيه هذا الشعور المفضى إلى الأدراك ؟ سواء أفهمنا هذا الأمر أم جهلناه ، فأنه واقع لا محالة ، ولا سبيل إلى نكرانه .

فلنسلم به وإن كنا لم نصل إلى فهمه ، ولننظر فى أمر آخر ، وهو أن هذا الشعور الذى يثيره الشىء الخارجى فى العقل . هل هو صورته الصحيحة فى الواقع ؟

هذا مثار خلاف شديد بين الفلاسفة . فالذين سبقوا منهم عهد سقراط قالوا إن الحواس الأنسانية تعجز عن ضبط كل ماهو واقع خارجها ، فما نحصله كثيرا ما يكون عرضة للتغير ، وموجبا للانخداع . قالوا لا يعقل أن يكون مانحس به

من لون أو حرارة فى الخارج هو بعينه الموجود منه فى الواقع لا أكثر ولا أقل . فرأى الفلاسفة الأولون من اليونانيين أن يشركوا التفهم فيما يرد على العقل من المدركات . ولكن هـذا التفهم نفسه عمل عقلى ، والعقل كما قررنا لا يرد عليه من الخارج إلا صورة تناسب قواه المحدودة ، فأذا أعمل فيه قوة التفهم فهل يكون مايحصله هو نفس الأمر الواقع ؟

هؤلاء الفلاسفة الأولون لم يقدروا قدر هـذا الاستشكال ، وأخذوا يستخدمون لتحقيق المدركات كل مايستطيعون استخدامه من وسائل التفهم ، فبنوا على ذلك نظرياتهم ومقرراتهم فى مختلف العلوم . جرى على هـذه السنة هيراقليط وامبيدوكل وأناغزاغور وديموكريت ومن نحا نحوهم ، فكانوا يفترضون النظريات ويحاولون إثباتها معتبرينها معبرة عن الواقع المحسوس غير حاسبين حسابا للطبيعة نفسها ، ولقيمة الوسائل التى يتوسلون بها لتقرير حوادثها وموجوداتها

فلما نشأ سقراط نبه على هـذا النقص وقرر أن الفلاسفة الأولين لم يأبهوا إلى أن العـلم الذى يقيمون صرحه هو من عمل العقل ، والعقل لا تتأدى إليه إلا مدركات ناقصة متقلبة ، على حين أن غرض العـلم هو إدراك الحقيقية الكلية الثابتة ثبوتا مطلقا

فلما جاء أفلاطون وتلميذه أرسطو قررا أن الحقيقة الثابتة التى لا يعطينا العقل عنها إلا إدراكا مشوشا ناقصا هى من العالم غير المـادى الذى لا يدركه إلا الوجدان العقلى وحده ، فليطلق عليه إسم المثال أو الصورة أو غيرهما . إلا إنه فى جوهره المدرك العام الذى يصل إليه العقل وحده ثم يعكسه على الخارج . فيكون على موجب هذا المذهب أن ماينا له العقل بوساطة الفـكر هو المظهر الصحيح لمـا هو موجود فى الخارج . ومن هنا تتحقق الوحدة بين العقل ومايدركه من أشياء الوجود ، وبذلك تصبح مسئلة المعرفة محلولة على أتم ما يكون .

ولكن لم تلبث هذه النظرية أن اصطدمت بعقبات خطيرة ، فأن الأسباب

التى منعت اعتبار الشعور بالأشياء الخارجية نسخة صحيحة منها ، منعت من إعتبار المدركات صورة صحيحة للحقائق غير المادية . واستحال الأمر إلى معرفة هل هذ الوجدان العقلي الصالح لأدراك الواقع من الأشياء فوق المحسوسة هو غير نتيجة تجريدات عقلية متتابعة تبتعد عن الواقع فى كل درجة من درجاتها وتعرى المعرفة من موضوعها الأصلى . فوجب والحالة هـذه البحث عن تفسير آخر لمسألة المعرفة

لما نبغ الفيلسوف أبيقور افترض وجود صور متوسطة للأشياء غاية فى اللطف ولكنها مادية من نوع مادة الروح (والروح مادية فى مذهبه) تشع من الكائنات وتتصل بالعقل ، أو بالعين مباشرة فيدركها . وبأدراكها يكون مدركا للأجسام التى تشع هى منها

ولكن هذا المذهب قد أثار من الشبه أكثر مما أثاره أى مذهب تقدمه فلم يرفع به أحد رأسا

فلما انتهى الأمر إلى الفلاسفة المحدثين من الأوربيين . رفضوا أن يعترفوا بأن للعقل إدراكا مباشرا على الأشياء ، ولا وجدانا تتجلى فيه حقائقها الخارجية بدون وساطة

فأما ديكارت فقد حذف على نحو مافعله أفلاطون وارسطو المعرفة من طريق الحس ، ولكن لا ليحل محلها الوجدان العقلى المباشر ، بل قال إن الروح تدرك خاصة التحيز للأجسام بفطرتها على وجه واضح متميز . ولا يستنتج من هذا أنها تدرك الواقع مباشرة ولكنها لعلمها من ناحية أخرى بوجود الله وأنه الخالق للكون والموجد لجميع خصائصه ، فأنها تعلم تبعا لذلك بأن كل ماتدركه من المتحيزات حق لامرية فيه . فهى بذلك تدرك الواقع بدون أن تتخطى ذاتها . فالوجود الخارجى فى حقيقته ليس عنده بشىء غير الفكر الذى يتولد فينا عنه ، وهذا الفكر فى الواقع هو فكر الله نفسه لأنه مستمد منه

وقد تابعه فى ذلك ، مالبرانش وسبينوزا .

أما ليبنتز فقد انفرد عنهما بنظرية هامة . وهى أن الفكر لما كان مرآة للموجودات ، فأن الروح ترى فيه الأشياء بدون أى عمل مباشر من تلك الموجودات

ولكن لما جاء (لوك) أرجع جميع المدركات إلى الشعور . فكان بمذهبه هذا معيدا عهد الفلاسفة اليونانيين القدماء الذين سبقوا سقراط فى الوجود

أما الفيلسوف الألمانى (كانت) فقد قرر أن ليس العقل هو الذى يرتب مدركاته على الأشياء الخارجة عنه ، ولكن تلك الأشياء هى التى تترتب على مقتضاه . وكلنا يعلم بأى تحليل دقيق قرر الفيلسوف الألمانى بأن العقل يضع فى كل معرفة شيئا من جوهره ، حتى فى أصغر المدركات وأحقرها . وليست وظيفة العلم إلا تحديد النواميس الضرورية لقيادة الكون ، وهى بهذا الاعتبار حقيقية وثابتة ، ومسيطرة على حدوث الظواهر الطبيعية

وأما الفيلسوف الألمانى (فيخت) فالواقع المحقق عنده هو الذات المطلقة

وأما (شيلنج) وهو ألمانى كالذى تقدمه ، فقال إن الوجود فكرة تتجسد فى الخارج

وذهب (هيجيل) وهو مواطن لسابقيه إلى أن الطبيعة هى مظهر الفكر المطلق

وزاد عليهم (شوبنهور) وهو من بنى جلدتهم فقال إن الكون ليس إلا صورة متمثلة ، وإذا أمكن أن يقال بأنه موجود باعتبار أنه إرادة فذلك على شرط أن يكون مدركا على مثال القوة المدركة له

أما الفلاسفة المعاصرون لنا فقد انقسموا فى هذه المسئلة إلى فرق كل منها تشايع مذهبا من المذاهب التى بسطناها . فنهم من يتابعون أفلاطون ، ومنهم من يسايرون ديكارت ، وآخرون يجارون (كانت) . ولديهم أن الوجود ليس بشىء متميز عن الفكر الذى يجب تحديد علاقاته بالمعرفة نفسها . وعليه فليس فى الأمر غير أشكال منوعة من المعرفة يجب تمحيصها وتقدير قيمتها . فحلت عندهم بذلك مسئلة المعرفة محل مسئلة الوجود نفسه ، وأصبحت الفلسفة بحذافيرها نقدا محضا ؟

محمد فريد وجدي